رئيس التحرير المسؤول
العميد منير عقيقي

لبنان الرسالة... بين التعدّد والإنقسام

يعرف لبنان في الخطاب السياسي والثقافي والديني بأنه "اكثر من وطن، هو رسالة". هذا التوصيف، الذي اطلقه البابا الراحل يوحنا بولس الثاني في مطلع التسعينيات، يعكس جوهر التجربة اللبنانية القائمة على التعايش بين الطوائف والاديان ضمن رقعة جغرافية محدودة، لكنه ايضا يبرز هشاشة هذا النموذج في ظل انقسامات متجذرة تهدد بنيانه من الداخل.

الغوص في معاني "لبنان الرسالة"، وتسليط الضوء على التعدد الذي يميزه، يعني ايضا استشراف وقراءة الاخطار التي تحدق به جراء الانقسامات الطائفية والمذهبية من جهة، وتطور الاوضاع الحالية في المنطقة من جهة اخرى، اللذين باتا يشكلان تهديدا وجوديا لكيانه ودوره.

لبنان الرسالة

في صلب الفكرة، يرتكز لبنان على تجربة فريدة في محيطه العربي والاسلامي، وهي تجربة التعددية الدينية والطائفية والسياسية والثقافية. ذلك ان لبنان هو الدولة الوحيدة في المنطقة التي تضم 18 طائفة معترفا بها رسميا، ولكل منها مؤسساتها الدينية والتعليمية واحوالها الشخصية، وحرية ممارسة شعائرها. هذه التعددية ليست فقط واقعا سكانيا، بل هي في صلب النظام السياسي نفسه، حيث يتم توزيع المناصب وفق قاعدة "الميثاق الوطني" منذ عام 1943، ثم اتفاق الطائف عام 1989. مع ذلك، فان لبنان الرسالة لا يختزل فقط في التعدد الديني، بل يتمثل ايضا في ما شكله من منبر للحريات، والاعلام، والجامعة، والنشر، والابداع الادبي والفني، كما شكل لبنان ملتقى ثقافيا وسياسيا، وجسرا بين الشرق والغرب، ومختبرا لفكرة العيش المشترك في بيئة ديموقراطية، ولو هشة، مفتوحة على التعدد والاختلاف.

التعدد كمصدر غنى

لا شك في ان التعدد الديني والمذهبي والثقافي في لبنان يشكل مصدرا للغنى والتميز. التفاعل بين الطوائف والمذاهب افرز عبر العقود ثقافة غنية ومركبة، تجد تعبيرها في الفنون، والهندسة، والادب، والنقاش السياسي، وانماط الحياة المختلفة والعادات في المناطق اللبنانية. حتى اللغة اللبنانية نفسها هي انعكاس لهذا التعدد، اذ تحتوي على مفردات عربية وسريانية وفرنسية وانكليزية في آن واحد. تاريخيا، شكلت الطوائف اللبنانية عنصر توازن وتكامل حينا، وصراعا وتمزقا احيانا اخرى. في أفضل حالاتها، ساهمت في بناء مؤسسات ريادية لا سيما في التعليم والاستشفاء. وفي اسوأ لحظاتها، تحولت الى كيانات متقوقعة، تتصارع على النفوذ والسلطة والموارد.

الانقسام الطائفي... جذوره وتجلياته

رغم مظاهر التعدد، فان لبنان لم يتمكن من تحويل هذا التنوع الى وحدة وطنية متماسكة. فعلى مدى العقود، بقي الانتماء الطائفي يتقدم على الانتماء الوطني، وظهرت مظاهر "الزبائنية" السياسية، حيث تمارس السلطة على اساس الولاء للطائفة او الزعيم وليس للدولة. هذا الانقسام يجد جذوره في عوامل عدة:

ـ التاريخ العثماني ثم الانتداب الفرنسي اللذان عززا الكيانات الطائفية وجعلاها وحدات ادارية واجتماعية واقتصادية قائمة في ذاتها.

ـ غياب الدولة المدنية وتكريس الطائفية السياسية دستوريا، وهو ما جعل الهوية الوطنية ضعيفة امام العصبيات الطائفية.

ـ الحروب الاهلية المتكررة، لا سيما حرب 1975 - 1990، التي رسخت الحواجز النفسية والجغرافية بين المكونات اللبنانية.

ـ تدخلات الخارج، اذ غالبا ما تكون الطوائف مرتهنة لمشاريع اقليمية، فتتحول الساحة اللبنانية الى ساحة صراع بالوكالة.

هل يمكن انقاذ لبنان الرسالة؟

ان ما يجعل لبنان اليوم في خطر ليس فقط ازماته الاقتصادية والمالية، بل ايضا انعدام الثقة بين مكوناته، وتراجع الشعور بالانتماء الى دولة واحدة. فلبنان اليوم يمر بامتحان وجودي حقيقي: هل يظل مساحة حرة للتعدد والعيش الواحد، ام يتحول الى ارض ممزقة بين الطوائف؟

الجواب عن هذا السؤال لا يملكه السياسيون وحدهم، بل الشعب اللبناني نفسه، في اختياراته اليومية، في صوته الانتخابي، في ثقافته، وفي سعيه نحو دولة المواطنة.

انقاذ "لبنان الرسالة" يتطلب ثورة فكرية وثقافية واخلاقية، قبل ان تكون ثورة دستورية وسياسية. واذا لم يتحقق هذا التحول، سيبقى لبنان معلقا بين حلم الرسالة وكابوس التشرذم، عاجزا عن استعادة قدره التاريخي كمنارة للشرق.

إلى العدد المقبل